ساعة ، وكيف تقيسه بمقياس المعيشة ، أو مقياس السياسة والاقتصاد . قد يكون الشعر مفيدا جد الإفادة ، ولكنه لايفيد بما يقوله على الألسنة بل بما يسرى فى النفوس ، ومايحرك من بواعث الشعور .

وهذه عبارات توحى مرة ثانية أن الشعر يفيد ـ إذا كان لا محالة من استعمال هذا اللفظ ـ من خلال الحفاظ على الحرية . ومن ثم كان من الخطأ أن ننكر أثر الشعر فى نهضة من النهضات لأنه لم يكن يحض الناس على المكارم الخلقية ، والفرائض الوطنية باللفظ الظاهر والدعاء الصريح .

إن استجلاء الشعر قد ضل السبيل لأننا حراص على تتبع أثر الشعر ، ودعواته الصريحة ، والربط بينه وبين مشاهد الحياة وأحداثها . ليس لنا أن نطلب من الشعر إلا الشعر . والشعر بطبيعته مظهر صحة النفس ، ولايعنيك بعدها موضوعه ولا منفعته . ولاتتهمه بالتهاون إذا لم يحدثك عن الاجتماعيات والحماسيات والحوادث التى تلهج بها الألسنة ، والصيحات التى تهتف بها الجماهير .

الشعر يخدمنا بوسائل الشعر أكثر مما تخدمنا الدعاية والحض والترغيب والترهيب . ولكن الذين يتحدثون عن أثر الشعر يتجاهلون ـ غالبا ـ تمحيص هذا اللفظ ، أو يتجاهلون طبيعة الشعر ذاته . لنفرض أننا أمام قصيدة يتحبب فيها الشاعر إلى الزهرة . هل يمكن أن تقرأ هذه القصيدة قراءة سليمة دون أن تأخذ فى التقدير علاقات متباعدة ومعقدة غير منظورة بين ما يقوله الشاعر وما قد يظن أنه منفعة وطنية بوجه من الوجوه . هل يمكن أن تفرق تفرقة حادة جسورا بين حب الزهرة ومسرات العيش ومباهج الحياة .

وبعبارة أخرى إن حب الزهرة ينطوى على حب التنظيم والتنسيق ، أو حب النظافة والجمال ، أو حب العمارة والإصلاح ، وكراهة الفاقة والجهل والصغار إن أبواب النفس تتداخل من حيث لا ندرى .

وقل مثل هذا فى تقويم الغزل وعلاقته برجل كريم وامرأة كريمة وابن نجيب يدرج فى حجر العطف والذوق والصحة .

ومغزى هذا أن الشعر عمل يتجاوز معناه الظاهرى ، وتتسرب مستوياته بعضها فى بعض تسربا مغزاه الحقيقى هو الإحساس بالحرية .